الكتاب الثانى

ا – مذهب التصنيع

ب – مذهب التصنع

الفصل الأول

التصنيع والدواوين

١

التصنيع في الحياة العربية

لا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى نحس أن الحياة العربيَّة تغيَّر إطارها تغيراً تامًّا، بل لقد تهدم إطارها القديم وحل محله إطار جديد من الزخرف والتصنيع، فقد أخذ الناس يعيشون معيشة حضارية مترفة لا تتصل بالبادية ولا بالحياة العربية القديمة، إنما تتصل بالأناقة والترف والزينة. وقد كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية أهم مدينة في العالم العربي تعبِّر عن هذه الحياة الجديدة وما يتصل بها من زخرف وتصنيع إذ «كانت تسمى بحق مدينة القصور المشيدة بالمرمر، وكانت العمائر فيها مؤلفة من عدة طبقات، وكان تأثير الذوق الفارسي ظاهراً جليًّا في زخرفها، وكانت تعلَّق على النوافذ والأبواب ستور مزركشة وحرائر مشجرة، أما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة والمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والمرصَّعات والمذهبات، وكانت قصور الخليفة تتألق بالجواهر البراقة»[1]. وقد وصف بعض العباسيين داراً للواثق فقال: «إنها كانت مُلْبَسة الحيطان بالوَشْي المنسوج بالذهب». ويقول: «إنه رآه يجلس على سرير مرصع بالجواهر، وعليه ثياب منسوجة بالذهب، وإلى جانبه فريدة تغنيه، وعليها مثل ثيابه»[2]. ويُروى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أنه أنفق على الدار التي كان ينزلها في وزارته الثانية ثلثمائة ألف دينار، وأنه أمر

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي لسيد أمير علي ترجمة رياض رأفت ص ٣٨٤.

(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٤/١١٦.

بإصلاحها فبلغت النفقة خمسين ألف دينار[١] . ولعل مما يدل على ترف العباسيين من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد من أن الثوب من الوشي الذى كان يُتَّخَذُ لها كانت تبلغ نفقته خمسين ألف دينار[٢] ، ويتصل بذلك ما يروى من أن أم المقتدر كان يُشْترى لها ثياب دَبيقية لتصنع منها نعالها ، وكانت تطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد[٣] ، فإذا كان المسك والعنبر يجمدان فى نعالها فما بالنا بثيابها وطعامها وما كان يتخذ فيها !

والحق أن الحياة العباسية كانت تقوم على الترف والزينة وما يتصل بهما من تصنيع وزخرف ، وقد ساعد الناس على ذلك ارتفاعُ مستوى المعيشة وما كانوا عليه من بذخ وثراء ، وربما كان مما يصور هذا الجانب من بعض الوجوه ما يروى من أن بعض العباسيين ورث عن مولى لأبيه وابن عم له ماتا فى يوم واحد ما قيمته أربعون ألف دينار ، ويقولون إنه عمّر داراً بألف واشترى جوارى وآلات وفرشاً وثياباً بسبعة آلاف ، وأعطى لتاجر ألفين يتجر له فيهما ، وأودع فى بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد ، وابتاع بالباقى ضيعة تُغلُّ فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[٤] . ومن يرجع إلى ما كتبه العباسيون عن عصرهم يجد صوراً مستفيضة لترفهم وحضارتهم وتنميقهم ، وإننا لنجد هذا التنميق فى كل مكان ، نجده فى قصورهم وحماماتهم إذ كانت تزين بالصور[٥] كما نجده فى مساجدهم ، وحتى الأبواب كانوا يزخرفونها ، يقول آدم متز : إن أبواب الدور كانت تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش ، وكانت تعلق البسط على الحيطان تتنافس بألوانها وزركشتها[٦] . ولعل من الطرف التى تعبر عن التصنيع فى هذا العصر تعبيراً دقيقاً ما يروى عن المقتدر بالله وقصوره وما كان فيها من بذخ إذ يقولون : إنه كان بقصره شجرة من الفضة زنتها خمسمائة

---

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن (طبع بيروت) ص ١٧٩ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى (طبع دار الرجاء) ٤/٢٤٤ .

(٣) نشوار المحاضرة (بتصحيح مرجليوث) ١/١٤٣ .

(٤) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١٧ .

(٥) الحضارة الإسلامية لآدم متز (طبع لجنة التأليف) ٢/١٦٢ .

(٦) نفس المصدر ٢/١٦٠ .

ألف درهم ، وكانت تقوم وسط بركة مدورة صافية المياه ، وكان لها ثمانية عشر غصناً ، على كل غصن الطيورُ والعصافير من كل نوع مذهَّبة ومفضضة ، وكان بها ورقُ مختلف الألوان ، وكانت تتمايل فى أوقات لها فيتحرك هذا الورق وتصفر الطيور وتهدر . ويبالغ المؤرخون فيما كان بقصور المقتدر من ستور الديباج المذهبة بالطرز الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع ، ويقال إنه كان بأحد قصوره بركة رصاص حولها بستان بميادين فيه نخل ، قيل إن عدده أربعمائة نخلة وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لَبِسَ جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الطّلع بحلق من شَبَه مذهبة[١] . ووقف ابن خلدون فى مقدمته عند ترف العباسيين وأكبر من شأنه مستدلا بما كان من إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما نثره أبوها من بنادق المسك وفيها الرقاع بأسماء الضياع والجوارى التى وزعها على المدعوين ، ونثر أيضاً كثيراً من الدنانير والدراهم ونوافج المسك ، ثم يقول : إن المأمون أعطى بوران مهراً لها ليلة زفافها : ألف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فُرُشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ، مكللا بالدر والياقوت ، ويفيض ابن خلدون فيما اتخذ بهذا العرس من أطعمة[٢] . وإن فى كتاب البخلاء للجاحظ ما يدل على مدى ترف العباسيين فى أطعمتهم وأوانيهم وتأنقهم فى ذلك . وكما تأنقوا فى طعامهم تأنقوا فى ثيابهم وملابسهم ، فكانوا يلبسون الثياب المصبغة ، وخاصة فى شرابهم[٣] . وما من ريب فى أن ما انتشر فى هذا العصر من غناء وشراب وطرب كان له أثره فى هذا الذوق المترف الذى يميل إلى أن يسرى التصنيع والزخرف فى جميع جوانب الحياة من عمارة أو أطعمة أو فُرش . وطبيعى أن يسرى هذا الذوق من حياة العباسيين الاجتماعية إلى حياتهم الأدبية لأنه تعبير عصرهم الذى عاشوا فيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس فرغوا للتنميق

---

(١) انظر تاريخ الخطيب البغدادى (طبع مصر) ١/١٠٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ١٢١ .

(٣) انظر الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع المطبعة الرحمانية) ص ١٥٣ .

والتصنيع ، فهم يصنّعون وينمّقون فى دورهم وفى ملابسهم وفى طعامهم وفى كل ما يتصل بهم .

٢

التصنيع ودواوين الخلافة العباسية

ونحن لا نمضى فى تتبع أصحاب الدواوين فى الخلافة العباسية حتى نجدهم منصرفين إلى العناية بكتابتهم ، إذ كانت هذه العناية هى التى توفّر لهم أسباب النجاح فى حياتهم . ونحن نعرف ما كان من مشاركة البرامكة فى الأدب والعلم ومعرفتهم بالبيان والبلاغة ، وسنرى أنه كان لهم الأثر الأول فى الاتجاه إلى التصنيع فى الكتابة ، كان الفضل بن سهل يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف ورياسة القلم ، وقد روى الرواة أن عمرو بن مسعدة وقّع على رقعة رُفعت إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، فأعجب بها جعفر ، وضرب بيده على ظهره ، وقال له : أى وزير فى جلدك[1] . وقد وصل محمد بن عبد الملك الزيات إلى الوزارة عن طريق أدبه وبيانه وما يحققه فيه من تنميق وتصنيع .

ويظهر أن جماعة كتاب الدواوين كانت تأخذ نفسها بثقافة واسعة ، وقد رأينا فى غير هذا الموضع كيف كان عبد الحميد الكاتب ينصح الكتّاب بمعرفة كتاب الله والفرائض والثقافة العربية من الشعر وأيام العرب وكذلك الثقافة الفارسية وما يتصل بتاريخ الفرس . ويظهر أن هذا كله لم يكن يكتفى به كتاب الدواوين فى العصر العباسى إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة فلسفية واسعة كما كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة الفارسية والهندية ، ومن أجل ذلك نعَى عليهم ابن قتيبة أنهم يهملون النظر فى اللغة بينما يشغفون «بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة » ، والحديث عن « الكون والفساد وسمع الكيان والكيفية والكمية

---

(١) ابن خلكان ١/٣٩٠ .

والجوهر والعرض، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم»[١] إلى غير ذلك مما كانوا يتشدّقون به مما عرفوه من الفلسفة والثقافات الأجنبية .

وهذا كله يدل على أن كتّاب الدواوين كانوا يوسّعون ثقافتهم ما استطاعوا، وعُنوا خاصة بالثقافة الفلسفية حتى يعمقوا أفكارهم ويرتبوا معانيهم ترتيباً دقيقاً. وهم كما عُنوا بمعانيهم عنوا أيضاً بألفاظهم عناية قد تفوق عنايتهم بمعانيهم حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أر قط أمثلَ طريقة فى البلاغة من الكتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا »[٢] . ويقول أيضاً : إن الكتّاب لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق : وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعانى[٣] .

وما من ريب فى أن هذه شهادة قيمة من الجاحظ لطائفة الكتاب وما كانوا يوفّرون لألفاظهم من عناية، وإنها لعناية تستمر بهم فإذا هم ينقلون حرفة الكتابة من أسلوبها القديم: أسلوب الصنعة إلى أسلوب جديد من التصنيع ، وبعبارة أخرى من السجع والبديع . وبدأت هذه العناية واضحة منذ عصر البرامكة الذين روت كتب التاريخ عنهم ترفاً واسعاً ، وكأن هذا الترف دفعهم هم والكتّاب من حولهم إلى التأنق فى حياتهم الاجتماعية، والتأنق أيضاً فى حياتهم الأدبية ، وخير من يصور ذلك جعفر بن يحيى البرمكى صاحب الدواوين فى عهد الرشيد فقد أشاد السابقون ببلاغته . يقول الجهشيارى : « كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقّع نُسخت توقيعاته ، وتُدورست بلاغاته »[٤] . ويقول ابن خلدون عنه : «وإن الناس كانوا يتنافسون فى الحصول على توقيعاته

---

(١) انظر أدب الكاتب لابن قتيبة (طبع مطبعة الوطن) ص ٣ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ٤/٢٤ .
(٤) الوزراء والكتاب ص ٢٠٤ .

ليقفوا منها على أساليبِ البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار »[1] . ووصفه ثُمامة بن أشرس فقال : «كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة »[2]. وفيه تقول عنان جارية النّاطفى[3] :

بـديهتُـهُ وفكرتُـهُ ســواءٌ إذا التبسـتْ على الناس الأمورُ

وقد كان جعفر يبالغ فى تنميق عباراته ، وهو تنميق كان يستمده من حياته التى بنيت بناء من التنميق والتصنيع والزينة حتى قالوا إنه كان يُتَّخَذ فى عصره مثلا للتصنيع والزخرف فى ثيابه[4] ، فكان طبيعياً أن يسقط ذلك إلى أدبه وبيانه . ولعل أهم ما يلاحظ من ذلك أنه كان يلتزم السجع فى كتبه وتوقيعاته ، روى ابن خلكان أنه وقّع إلى بعض عمّاله : «قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت »[5]. وأكبر الظن أن جعفراً كان يبنى عباراته على السجع ، وهذا أول مظهر من مظاهر مذهب التصنيع . ويبدو أن هذا الاتجاه فى صناعة النثر لم يقتصر حينئذ على جعفر البرمكى ودواوينه بل أخذ ينتشر وخاصة عند طلاب الحاجات الذين يرفعون ظلاماتهم أو يقدمون توسلاتهم ، فقد روى الجاحظ أن ابن سيّابة الشاعر كتب إلى يحيى بن خالد البرمكى برسالة بليغة كان عامةُ أهل بغداد يحفظونها وهى رسالة بُنيت كلها على السجع[6] ومرّ بنا فى الفصل الثانى من الكتاب الأول أن كثيراً من الوعاظ كانوا يستخدمون السجع فى أواخر عصر بنى أمية ، وقد استمر ذلك فى العصر العباسى الأول ، وفى عيون الأخبار لابن قتيبة نماذج من ذلك فى مقاماتهم بين أيدى الخلفاء[7].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .

(٢) البيان والتبين ١/١٠٦ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٢٠٤ .

(٤) أنظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثالث ص٩٥٤ وانظر أيضاً الوزراء والكتاب ص٢١٥ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٠٥ .

(٦) البيان والتبيين ٣/٢١٥ .

(٧) عيون الأخبار ٢/٣٣٢ - ٣٤٤ .

وإذاً فنحن لا نُبعد إذا قلنا إن عنصر السجع وهو العنصر الأول فى مذهب التصنيع أخذ يظهر منذ القرن الثانى الهجرى ، وإذا تركنا هذا القرن إلى القرن الثالث وجدنا هذا العنصر يظهر فى الرسائل السياسية وعند كُتَّابها ، ولعل أقدم نموذج يصور ذلك وصية[١] طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية المتوفى سنة ٢٠٧ للهجرة لابنه عبد الله عند ما عيَّن والياً على ديار ربيعة فى سنة ٢٠٦ هـ . ويستمر السجع عند الكتَّاب وعلى رأسهم عمرو بن مسعدة الصولى الذى كان يلى شئون الدواوين لعهد المأمون ، وكان جده صول من ملوك جرجان وهم ترك[٢] ، وقد نشأ عمرو فى دواوين البرامكة وتربّى على أساليبهم ، ولذلك لم يكن غريباً أن نجده يحتذى أحياناً على أمثلتهم من السجع والتنميق فى عباراته ، ولعله من أجل ذلك كان المأمون يعجب برسالاته[٣] . وانظرْ إليه يكتب إلى الحسن بن سهل[٤] :

« أما بعد فإنك ممن إذا غَرَس سَقَى ، وإذا أسس بنى ، ليستتمَّ تشييد أسِّه ، ويجتنى ثمار غرسه ، وبناؤك عندى قد شارف الدروس ، وغَرْسُكَ مُشْفٍ على اليبوس ، فتدارِكْ بناء ما أسَّسْتَ ، وسقى ما غرست إن شاء الله » .

وهذه الرسالة القصيرة تدلنا على ضميمة أخرى أخذت تُضَمّ إلى سجع أصحاب الدواوين فى القرن الثالث ، ونقصد ما يتشح به سجعهم من صور بيانيه ، وضميمة ثانية تلاحَظ عند عمرو وهى سَعَة الحيلة فى كتاباته مع الإيجاز الشديد . رَوَى الرواة أن المأمون أمره أن يكتب لشخص كتاباً إلى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فى سطر واحد فكتب إليه[٥] :

« كتابى إليك كتابُ واثقٍ بمن كُتب إليه ، مَعْنِيٍّ بمن كُتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله ، والسلام » .

وما من ريب فى أن هذا الكتاب — على قصره — يصور المهارة العقلية

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/١٠٤٦ والكامل لابن الأثير ٦/٢٦٨ .
(٢) معجم الأدباء طبع مصر ١/١٦٥ .
(٣) وفيات الأعيان ١/٣٩٠ .
(٤) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .
(٥) وفيات الأعيان ١/٣٩٠ .

التى كان يحتاجها كاتب الديوان فى العصر العباسى ، فهو يحتال فى كتاباته ، وهل فى هذا الخطاب سوى الاحتيال بصورة طريفة عن الفكرة التى يريد الكاتب أن يؤديها ؟ اتسع هذا الاحتيال واتسع ما يُطوَى معه من عناية باللفظ كلما تقدمنا مع الزمن فى العصر العباسى . وممن اشتهر فى هذا الجانب كاتب آخر من الصوليين كان يكتب للمتوكل وهو إبراهيم بن العباس الصولى ، وكان يشبه عمرو بن مسعدة فى دقة التعبير وحَبْكته وما يُطْوَى فى ذلك أحيانا من سجع ، وانظر إليه يكتب لابن الزيات مستعطفاً[١] :

« كتبتُ وقد بلغت المُدْية المخزّ ، وعدت الأيامُ على بعد عَدْواى بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثرُ خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكف عنى أذاتها ، فصرت أضرّ علىّ منها ، كَفَّ الصديق عن نصرتى خوفاً منك ، وبادر إلىّ العدوُّ تقرباً إليك » .

وأنت ترى عند إبراهيم عمق التفكير وطرافته كما ترى تأنقه فى لفظه ، ويظهر أن ذلك كان سمة عامة بين الكتّاب فهم جميعاً يبالغون فى العناية بألفاظهم . ولكن ينبغى ألا يُفْهَم من ذلك أنهم كانوا يعمدون إلى السجع دائماً ، إنما هذه رسائل أخترناها لهؤلاء الكتّاب ، ولهم رسائل أخرى لاسجع فيها . ومعنى ذلك أن الكتّاب حتى منتصف القرن الثالث كانوا يسجعون أحياناً وأحياناً لا يسجعون ، وقد استمر ذلك شأنهم حتى أواخر هذا القرن . ومن أبرعهم فى هذا الجانب أبو العباس بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أصل نصرانى[٢] . وكان يسجع أيضاً فى بعض رسائله[٣] ، وكان له أخ يسمى جعفر بن محمد بن ثوابه تولّى ديوان الرسائل فى عهد الوزير عبيد الله ابن سليمان وتوفى عام ٢٨٤هـ ، وقد بنى أبناؤه يتوارثون من بعده ديوان الرسائل فى بغداد حتى تسلمه منهم أبو إسحق الصابى عام ٣٤٩[٤] . ومما لاشك فيه أن هذه الأسرة لعبت دوراً مهمًّا فى استخدام السجع والتزامه .

---

(١) معجم الأدباء ١/١٧٠ .
(٢) نفس المصدر ٤/١٤٤ .
(٣) نفس المصدر ٤/١٤٧ .
(٤) معجم الأدباء ٧/١٨٨ .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن أهم الكتّاب الذين نموا السجع فى القرنين الثانى والثالث كانوا من الأجانب وعلى رأسهم أسرة البرامكة الفارسية ، وأسرة الصَوليين التركية ، وأكبر الظن أن الجنس لم يكن له دخل فى المسألة ، فنحن نعرف كما مر بنا فى القسم الأول من هذا الكتاب أن السجع قديم فى اللغة العربية ، وغاية ما هنالك أنه اختفى أول الأمر فى الكتابة الديوانية ثم أخذ يظهر فيها من حين إلى حين منذ القرن الثانى . على أننا لا نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى نجد دوافع كثيرة تدفع بعض الناس إلى التزامه فى كتاباتهم ، وكأنما حياتهم المليئة بالزخرف والتصنيع هى التى دفعتهم إلى ذلك دفعاً ، وممن كان يلتزم ذلك أبو العيناء المتوفى عام ٢٨٢ هـ ، فقد كتب له أبو على البصير رسالة جاء فى آخرها : « وقد نفذت لى إليك رسالة العتاب ، على مخرج ألفاظ الكتّاب . وقد ملت إلى السجع على علمى بخساسة حظه ، وركاكة معانيه ولفظه ، إذ كنت تلوى به لسانك ، وتثنى إليه عنانك ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك»[١] . ويبيّنٌ أنه ينص على أن أبا العيناء يلتزم السجع فى رسائله كما ينص على أن السجع خسيس الحظ ، ركيك اللفظ ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على أنه لما يشع وينتشر .

على أننا لا نصل إلى عصر المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) حتى نجد السجع يصبح عامّاً فى كل ما يصدر عن دواوينه ؛ فليس هناك وزير ولا كاتب إلا وهو يتخذ السجع فى صياغته . وارجعْ إلى كتاب تاريخ الوزراء للهلال بن المحسّن ؛ وهو الكتاب الذى يؤرخ هذه الحقبة من خلافة المقتدر . فستجد كل ما يصدر عن هذا العهد يصدر مسجّعاً ، سواء فى ذلك ما يصدر عن كاتب الرسائل من آل ثوابة وما يصدر عن الوزراء أمثال ابن الفرات . وهو أول وزراء المقتدر ثم على بن عيسى الذى كان يتداول معه الوزارة لهذا العهد ، وقد روى له الهلال طائفة كبيرة من الكتب والرسائل وكلها مسجوعة[٢] ؛

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور ، ورقة ٢٣٣ .

(٢) انظر تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن (طبع بيروت) ص ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٤ . وانظر أيضاً معجم الأدباء ٧/١٣٦١ .

وكذلك كان شأن الوزير الثالث فى هذا العهد وهو الخاقانى فقد كان صَبًّا بالسجع مغرماً به ، وله فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل تأخر فى حمل غلّة إليه فكتب له : « احمل الغلّة ، وأزح العِلّة ، ولا تجلس متودِّعا فى الكِلّة » . ثم التفت إلى الكاتب وقال له : أفى النيل بقّ يحتاج إلى كِلل ؟ فقال : إى والله وأىُّ بقّ ومن أجله يلزم الناس الكلل نهاراً وليلا.[1] ووقّع فى كتاب إلى بعض عُمّاله : « الزمْ — وفقك الله — المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدَّجاج إن شاء الله » فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية ، فقال : هذا دَجاج وفّرته بركة السجع[2] . وكما كان يسجع الوزراء لعهد المقتدر كان يسجع الكتاب فى دواوينه وعلى رأسهم محمد بن جعفر بن ثوابة ، وقد احتفظ له ياقوت بمنشور وجّهه عن الخليفة إلى العمال فى الأقاليم المختلفة ، وهو مسجوع كله[3] ويظهر أن الولاة أخذوا يقلدون هؤلاء الكتّاب والوزراء وما كان من سجعهم ، فقد روى الهلال أن أبا الحسن بن نيداد — وكان يتقلد كُوَرَ الأهواز — كتب إلى على بن عيسى كتاباً سجع فيه سجعاً زاد فيه فكتب إليه : « عَوَّلتَ بنا على كلام ألفته ، وخطاب سجّعته ، أوجب صَرْفك عما توليته »[4] . وفى هذا كله أكبر الدلالة على أن السجع عم فى الكتابة الديوانية منذ عصر المقتدر . وربما كان من الأدلة على ذلك أننا نجد الخليفة القاهر الذى ولى الخلافة بعد المقتدر يطلب إلى بعض من يقفون على أخبار بنى العباس أن يصفهم ثم يقول له : « ولا تغيّب عنى شيئاً ، ولا تحسِّن القصة ، ولا تسجع فيها »[5] . وكأن الخليفة ملَّ كثرة ما يقرأ من السجع الخالص ، فهو يطلب كتاباً لا سجع فيه ونرى من كل ما سبق أن السجع — وهو أحد الجوانب المهمة فى التصنيع وزخرف الأساليب — أخذ يظهر من حين إلى حين منذ القرن الثانى ، وما يزال ينمو

---

(١) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٧٧ .
(٣) معجم الأدباء ١٨/٩٧ .
(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .
(٥) مروج الذهب للمسعودى ٤/٢٤١ .

ويتسع استخدامه فى القرن الثالث ، حتى إذا وصلنا إلى عصر المقتدر أصبح عاماً بين كل الكتاب فى ديوان الخلافة ، فليس هناك شيء يُكْتَبُ إلا ويصاغ فى أسلوب السجع وبذلك يتكامل أحد الجانبين الأساسيين فى مذهب التصنيع وهما : السجع والبديع ، وسنرى — عما قليل — الكتّابَ يحققون له جميعاً الجانب الثانى : جانب البديع والترصيع .

٣

التصنيع ودواوين الإمارات الفارسية

إذا تركنا عصر المقتدر طلع علينا عصر جديد هو عصر الإمارات التى تقسمت فيما بينها إيران وخراسان ، ونقصد إمارة السامانيين الذين امتد نفوذهم فى خراسان وما وراء النهر من سنة ٢٦١ هـ إلى سنة ٣٨٩هـ ، ثم إمارة البويهيين الذين بسطوا نفوذهم على الولايات الجنوبية الغربية من إيران كما بسطوه على العراق وبغداد نفسها إذ كان الخليفة ألعوبة فى أيديهم ، وقد استمر سلطانهم من سنة ٣٢١ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ. وبجانب هاتين الإمارتين الكبيرتين كانت توجد إماراتان صغيرتان : إحداهما فى خوارزم ، والثانية فى طبرستان وجرجان حيث أسرة الزياريين ، ثم تظهر الدولة الغزنوية فى أواخل القرن الرابع فتستولى على ما كان بيد السامانيين . والغزنويون يرجعون إلى أصل تركى بينما يرجع السامانيون والبويهيون والزياريون إلى أصول فارسية ، وأسس الغزنويون لهم أول الأمر إمارة فى أفغانستان ثم توسعوا فاستولوا على إمارة السامانيين .

وقد هيأت هذه الإمارات والدول المختلفة لحركة أدبية وعقلية واسعة ، بحيث يمكن أن يُعَدَّ هذا العصر — على الرغم مما كان فيه من انقسام الدولة العباسية على هذا النحو — أحفل العصور العربية بالنشاط الأدبى والعلمى والفلسفى . ويكفى أنه ظهر فى هذا العصر أشهرُ فلاسفة الإسلام وعلمائه من مثل ابن

سينا الذى خدم فى بلاط السامانيين ، والبيرونى الذى خدم أولا فى بلاط ملوك خوارزم ثم خدم فى بلاط ملوك الدولة الغزنوية .

على أن الجانب العقلى لا يهمنا إنما يهمنا الجانب الأدبى وما لقى الأدب حينئذ من تشجيع ورواج . والغريب أن الحياة الأدبية ازدهرت فى هذا العصر ازدهاراً لم تعرفه فى أى عصر سابق ، إذ كان كل حاكم فى إمارة من هذه الإمارات السابقة يختار فى حاشيته جماعة من الأدباء الممتازين لينافس بهم حكّام الإمارات والدول الأخرى ، وبذلك ظهر فى كل مركز من مراكز هذه الإمارات حركة أدبية أو قل سوقاً أدبية ، وساعد على ذلك أن هؤلاء الحكام استوزروا كبار الأدباء فى أقاليمهم ؛ ومن ثَمَّ أصبحنا نسمع فى كل إمارة باسم أديب بل باسم أدباء ممتازين يتولون شئونها ويشرفون على مرافقها ، فعند السامانيين نجد العميد والد ابن العميد الكاتب المشهور كما نجد الإسكافى الكاتب المعروف ، ونجد أيضاً أسرة بنى ميكال النيسابورية ، وقد ولى كثير منها دواوين السامانيين ، وعند البويهيين نجد ابن العميد كما نجد الصاحب بن عباد ، وهما أهم كتّاب العصر ، وفى الدولة الزيارية نجد أميراً من أمرائها يشتهر بالكتابة وهو قابوس بن وشمكير . ولم يقف هذا الامتياز للأدباء وصلتهم بالحكام عند أصحاب الإمارات الكبيرة ، فقد كان بعض حكام البلدان الصغيرة يتخذون كتّاباً مشهورين مثل البُسْتى كاتب أمير مدينة بست فى أفغانستان ثم كاتب الدولة الغزنوية ، وإن الإنسان ليخيل إليه أن كل حاكم فى مدينة أو مقاطعة بإيران لم يعد يشغله إلا أن يجمع حوله بطانة من الكتّاب تعيش فى بلاطه ، ويكفى للدلالة على اعتداد الحكام بالكتاب أن نجدهم فى بغداد يستخدمون على ديوان الرسائل كاتباً صابئاً ليس من المسلمين ، هو أبو إسحق الصابى لما عرف من بلاغته ومهارته البيانيه . ومما يدل على ما كان للكتابة الجيدة فى هذا العصر من شأن حتى فى السياسة نفسها ما رواه صاحب اليتيمة من أن ابن العميد « كتب رسالة إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة وخروجه عليه ، فلما قرأها ابن بلكا رجع وأناب ، وقال لقد ناب كتاب

ابن العميد عن الكتائب فى عَرْك أديمى واستصلاحى وردّى إلى طاعة صاحبه»[١] .
وهذه القصة تدل على قيمة الكتب المحبرة فى القرن الرابع وأنها كانت تقوم مقام الجيوش فى الظفر بالأعداء ، لذلك اهتم كل أمير بوزرائه وكتّابه ، واهتم الوزراء والكتاب أنفسهم بصناعة كتبهم وتحبيرها ، وإدخال كل ما يمكن من ضروب التصنيع والتجميل عليها ، وقد كانت حياتهم تؤهل لذلك إذ كانت تقوم على التصنيع والتنميق . يقول بعض الشعراء فى هجاء كُتَّاب الدولة السامانية[٢] :

أكتَّاب ديوانِ الرسائلِ ما لكم تجمَّلتمُ بل متُّم بالتَّجمُّلِ

وكذلك كان كتّاب الدولة البويهية يتأنقون ويتصنعون فى حياتهم ، وكان الصاحب بن عباد خاصة يعجب بالخزّ ويأمر بالاستكثار منه على خدمه وغلمانه فكانوا يبدون فى الخزوز الفاخرة الملونة[٣] . وغير كُتَّاب السامانيين والبويهيين كانوا يتأنقون تأنقهم ، ولا غرابة فهم يعيشون فى قصور هؤلاء الحكام والأمراء معيشة مترفة تقوم على التصنيع والتنميق ، ولذلك كان طبيعيًّا أن يسقط هذا الجانب الذى يتصل بحياتهم إلى أدبهم وفنهم ، بحيث أصبح التصنيع أساسيًّا فى كل ما تنتجه هذه القصور ومن يعيشون فيها من هؤلاء الكتَّاب والأدباء.

ومهما يكن فإن الإمارات الفارسية هيأت لنهضة أدبية واسعة ، وقد اقترنت هذه النهضة بمذهب التصنيع ، ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن كل إمارة من هذه الإمارات اشتهرت بمراكز مختلفة للنهضة الأدبية ، ففى الإمارة السامانية نجد نيسابور التى أخرجت الثعالبى ، كما نجد بخارى العاصمة التى « كانت مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء العصر »[٤] . وفى الإمارة البويهية نجد همذان التى أخرجت بديع الزمان ،

---

(١) اليتيمة (طبعة الصاوى) ١٤٧/٣ .
(٢) اليتيمة ٧٤/٤ .
(٣) اليتيمة ١٧١/٣ .
(٤) اليتيمة ٩٥/٤ .

وأصبهان التى أخرجت الصاحب بن عباد ، والتى يقول فيها صاحب اليتيمة : « لم تزل أصبهان مخصوصة من بين البلدان بإخراج فضلاء الأدباء وفحولة الكتّاب والشعراء »[١] . كما نجد الرّىّ دار عضد الدولة البويهى ومستقر ابن العميد . وأخرجت خوارزم لهذا العصر أبا بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ، كما أخرجت طبرستان قابوس بن وشمكير ، ولعل من الطريف أن الثعالبى فى اليتيمة لم يَبْنِ كلامه على أدباء هذا العصر حسب الإمارات ، بل بناه حسب المدن والبلدان. على أن هذا لا يجعلنا ننسى ما كان من تشجيع الأمراء والحكام للحركات الأدبية فى هذه المراكز ، وخاصة بنى بويه ، إذ كان كثير منهم أدباء ، وقد فتح لهم الثعالبى فى يتيمته فصولا لاستعراض هذا الجانب فيهم[٢] . والحق أن أمراء الدول الإيرانية عامة شجعوا — بكل وسيلة تمكنهم — الأدباء والكتاب . ومن الظواهر المهمة التى اقترنت بهذا العصر أننا نجد الأدباء ينتقلون من بلاط إلى بلاط يرفعون كتبهم ومؤلفاتهم إلى الملوك والأمراء ، على نحو ما لاحظ براون فى كتابه (تاريخ الفرس الأدبى) إذ ذكر أن الثعالبى ألف كتاب «لطائف المعارف» للصاحب بن عباد «والمبهج» و«التمثل والمحاضرة» لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، و«سحر البلاغة» و«فقه اللغة» للأمير أبى الفضل الميكالى ، و«النهاية فى الكناية» و«نثر النظم» و«اللطائف والظرائف» لمأمون بن مأمون أمير خوارزم[٣] . وهؤلاء الأمراء والملوك لم يُكرموا فقط من كانوا يرحلون إليهم ، بل كانوا يكرمون أيضاً أبناء أقاليمهم من فقهاء وشعراء وأدباء ولغويين وفلاسفة ، ولذلك كنت تجد حول كل قصر طائفةً من الشعراء والأدباء والعلماء . ولعل مما يدل على مدى حرص هؤلاء الأمراء على العلماء والأدباء ما رواه براون عن السلطان محمود الغزنوى من أنه علم أن فى بلاط ملك خوارزم طائفة من العلماء والفلاسفة مثل ابن سينا والبيرونى وأبى سهل المسيحى وأبى الخير الحسن بن الخمار وأبى نصر بن العرّاق ، فكتب إليه أن يبعثهم حتى يَتشرّفوا بحضرته ويفيد هو من ثقافتهم ومهارتهم ،

---

(١) اليتيمة ٣/٢٦٧ .

(٢) اليتيمة ٢/١٩٥ وما بعدها .

(٣) E.G. Browne, A Literary History of Persia, 1928, vol. II, p. 101

وقد لبى الدعوة البيرونى والخمار والعرّاق ، ورفضها ابن سينا وأبو سهل المسيحى . وغير محمود الغزنوى من ملوك السامانيين الذين سبقوا دولته وملوك البويهيين والزياريين والخوارزميين كانوا يعنون هذه العناية بحشد العلماء والأدباء فى بلاطهم وحول قصورهم ، وكان ذلك كله مبعث نهضة أدبية لا نغلو إذا قلنا إنها — من وجهة الكتابة والصناعة الديوانية — تعلو على كل نهضة سبقتها فى هذا الجانب ، وتتفوق على كل حركة تقدمتها ، إذ أترف الذوق الكتابى لهذا العصر بسبب ترف الملوك والأمراء الذين كانوا يقومون عليه ، وأصبحنا نجد أساس البلاغة أن تكون حلية وزينة ، فهى تستخدم استخداماً زخرفيًّا ، تستخدم كأداة من أدوات الترف والزينة ، وكل أمير يفخر بما حصل عليه من هذه الأدوات والطُّرَف الزخرفية . وبذلك يصل مذهب التصنيع إلى الغاية التى كان يَرْنُو إليها منذ القرن الثانى ، وهى غاية كلها زخرف وتصنيع ، وسنقف قليلا عند أهم كاتب أثر فى هذا الجانب ، وهو ابن العميد كاتب البويهيين ، فهو يعتبر أستاذ المذهب الذى خطا به نحو هذه الغاية من التجميل والزينة ، وعلى مثاله كان يَحْتذى الكتّاب فى عصره وبعد عصره .

٤

ابن العميد : حياته وثقافته

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، وهو فارسى من مدينة قُم [1] ، وهى مدينة شيعية ، ولذلك لا نعجب إذا رأيناه شيعيًّا على مذهب الإمامية . وقد نشأ فى بيت أدب وكتابة ، إذ كان أبوه كاتباً لما كان بن كاكى ، ولما قتله السامانيون فى بعض مواقعهم معه أخذوا كاتبه أبا عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلّة والد صاحب الترجمة أسيراً معهم ، ثم أفرجوا عنه وأكرموه ، ورتبوه فى الدار

(١) انظر فيها معجم البلدان لياقوت .

السلطانية ، وسرعان ما تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ولُقِّبَ الشيخ كالعادة فيمن يلى ذلك الديوان كما لقب بالعميد ، ويقول أبو إسحق الصابى فى كتابه التاجى : إن رسائل العميد لا تقصر فى البلاغة عن رسائل ابنه أبى الفضل ابن العميد[١]. ويظهر أن العميد لم يأخذ ابنه معه إلى بلاط السامانيين ، بل تركه فى رحاب البويهيين . يقول صاحب اليتيمة : « ولم يزل أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكُوَرِ الجبل وفارس يتدرج إلى المعالى ويزداد على الأيام فضلا وبراعة حتى بلغ ما بلغ واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل »[٢] . وكان تقلده هذه الوزارة عام ٣٢٨ هـ وظل يتقلدها إلى وفاته عام ٣٦٠ هـ .

ولسنا نعرف شيئاً ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد سوى ما عرفناه عن أبيه ، ثم ما ذكره صاحب الفهرست عن أستاذ له يسمى محمد بن على بن سعيد المعروف باسم سمكة[٣] ، وقد سماه صاحب اليتيمة ابن سمكة[٤] ، ويقول صاحب الفهرست إن له كتاباً فى أخبار العباسيين[٥] . على كل حال ليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة على المنابع الثقافية التى نهل منها ابن العميد ، غير أننا لا نتابعه فى آثاره وفى حياته أثناء وزارته حتى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره ، ولعله من أجل ذلك سمى باسم الجاحظ الثانى[٦] ، وألمع مسكويه قيِّم دار كتبه فى كتابه (تجارب الأمم) إلى ثقافته فقال : إنه « أكتبُ أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام ، فأما القرآن وحفظُ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة » . ويقول

---

(١) اليتيمة طبع الصاوى ١٣٨/٣ .
(٢) اليتيمة ١٣٩/٣ .
(٣) الفهرست لابن النديم (طبع مصر) ص ٢٠٠ .
(٤) اليتيمة ١٤٣/٣ .
(٥) الفهرست ص ٢٠٠ .
(٦) وفيات الأعيان ٥٧/٢ .

مسكويه : « أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جَسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قَصْد التعلم » . ويروى مسكويه أن أبا الحسن العامرى الفيلسوف النيسابورى قصد إليه ، وقرأ عليه عدة كتب مستغلقة من كتب الفلسفة ، وليس هذا كل ما ذكره مسكويه عن ثقافة ابن العميد ، بل إنه يقول أيضاً : « كان ابن العميد يختصُّ بغرائب من العلوم الغامضة التى لا يدعيها أحد كعلوم الحِيل (الميكانيكا) التى يُحْتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقيل ، ومعرفة مركز الأثقال ، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل »[1] . وأكبر الظن أن هذا الاتساع فى الثقافة الفلسفية وما يتصل بها من علوم الطبيعة والهندسة والحِيل هى التى جعلت الرَّازِىّ يتقدم إليه بتفسيره للمقالة العاشرة فى أصول الهندسة من كتاب إقليدس بعد أن نسقها وجوّدها[2] وأكبَر الشعراء فى ابن العميد هذا الجانب كما أكبروا فيه بلاغته وفصاحته ، وقد عبّر عن ذلك المتنبى تعبيراً بديعاً فى قصيدتيه الرائية والدالية ، ومن قوله فى الأولى :

مَنْ مبلغُ الأعرابِ أنى بعدهم ... شاهدتُ رَسْطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كُتْبِه ... متملِّكاً ، متبدِّياً ، متحضرا
ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنما ... ردَّ الإلهُ نفوسَهم والأعصُرا

ويقول فى الثانية :

عربىٌّ لسانهُ ، فلسفىٌّ ... رأيُهُ ، فارسيةٌ أعيادُهْ
خلق الله أفصح الناس طُرًّا ... فى بلادٍ أعرابهُ أكرادُهْ

وهذا كله يؤكد أن ابن العميد أتاح لنفسه ثقافة واسعة . وكما عمل على تثقيف نفسه عمل أيضاً كل ما يستطيع فى خدمة ركن الدولة ثم ابنه عضد الدولة ، كان يقود الجيوش بنفسه ، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد

---

(١) انظر فى هذه النصوص فصلا طويلا كتبه مسكويه عن ابن العميد فى كتابه تجارب الأمم الجزء الثانى من ص ٢٧١ — ٢٨٢ .

(٢) الفهرست ص ٢٧٢ .

الدولة على بغداد والعراق . وقد خرج فى أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردى حسنويه ، ولكنه توفّى فى الطريق فى صفر عام ٣٦٠هـ[١] . وقد نَيَّفَ عمره على ستين سنة[٢] .

٥

تصنيع ابن العميد

وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يُعَدُّ أستاذ عصره فى فن التصنيع ، وقد أقرَّ له ببراعته وفصاحته وامتيازه فى كتابته كل من تصدَّوا لترجمته ، يقول صاحب اليتيمة : « هو عين المشرق ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضرب فى الآداب بالسهام الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدْعَى الجاحظ الأخير ، والأستاذ والرئيس ، ويضرب به المثل فى البلاغة ، وينتهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها ، إلى براعة المعانى ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها : بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد ، وكان يقال : بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد »[٣] . وفى هذه الفقرة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه ابن العميد فى عصره من مكانة أدبية ممتازة ، وهى مكانة لم يأخذها عن طريق مركزه السياسى ، وإنما أخذها عن طريق فنه الخالص إن كان ينحو نحواً بديعاً من التصنيع والزخرف فى كتابه ، وقد مر بنا فى غير هذا الموضع أن الكتاب اصطلحوا منذ عصر المقتدر على أن يعمموا السجع فى كل ما يكتبون ، واستمر ذلك من بعدهم ،

---

(١) انظر ترجمة ابن العميد فى دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، المجلد الأول ص ٢٤٤ .

(٢) تاريخ ابن الأثير (طبع أوربا) ٤٤٦/٨

(٣) اليتيمة ١٣٧/٣ .

وكان ابن العميد يسجع فى كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده، إنما الذى يلفتنا حقًّا هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه فى الصورة التى كانت تنتظره منذ القرن الثانى ، ونقصد صورة السجع من جهة والاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة أخرى ؛ ومن أجل ذلك إذا قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم نُبعد ؛ لأنه أول كاتب — فيما نعرف — احتكم إلى السجع فى كتابته ، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير ، وقد هيأه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية ، بل لقد كان ذا شغف بفن التصوير نفسه . يقول مسكويه : « لقد رأيته يتناول فى مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسته التفاحة وما يجرى مجراها، فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه ، وقد خطّها بظفره ، او تعمد لها غيره بالآلات المعدة ، وفى الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتى له مثلها » . ولا شك فى أن هذه النزعة التصويرية فيه كان لها أثر مهم فى نثره ، إذ جعلته نثراً مصوَّراً يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم فى كتاباته ، كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما ، وكأنه كان يحسُّ بأن هذه الألوان جميعاً من تصوير وغير تصوير تقوم من نثره مقام الألوان الحسية من لوحة الرسام . وانظرْ إليه يكتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ، فيسهل رسالته على هذا النمط[1] :

« كتابى ، وأنا متأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حُرمة ، وتمتّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حقًّا ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحديث غُلول[2] وخيانة ، وتتبعهما بآنف[3] خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يَحْبط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرْعى لك . لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدقك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك[4] واجتياحك ، وأثنى

---

(١) اليتيمة ٣/١٤٥ .
(٢) غلول : خيانة .
(٣) آنف : أشد .
(٤) الاصطلام : الاستئصال .

ثانية لاستبقائك واصطلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضنًّا بالنعمة عندك ومنافسة فى الصنيعة لديك، وتأميلا لفيئتك[1] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرُب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللبّ ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويُضاع الرأى ثم يستدرَك، ويَسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فإلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك ، بما لم تحسبه أولياؤك فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستيناء[2] والمطاولة ما أمكن، طمعاً فى إنابتك وتحكيماً لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاهره من إعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظّك ويسدّدك » .

والرسالة كلها تمضى على هذا النحو من السجع والعناية بالبديع ، فكلها تحف من السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير ، فهى وشى خالص ، هى بديع وتطريز وترصيع ، إذ ما يزال ابن العميد يدمج وشى السجع فى وشى البديع من التصوير والطباق والجناس ، فإذا أساليبه وكأنها ثروة زخرفية هائلة ، وهل هناك عبارة فى هذه القطعة لم تُحلّ بلون من ألوان البديع ، وهو يضع هذه الألوان الرائعة على ألفاظه المسجعة فإذا هى تختال فى هذه المقدرة البديعة من الزخرف والتصنيع . وأكبر الظن أن ابن العميد قد تأثر فى صناعته بصناعة السجاد فى إقليمه ، فهو يعانى فى كل لفظة ما يعانيه صانع السجاد فى كل خيط ، ثم هو بعد ذلك يعنى بالوشى الذى تعبر عنه ألفاظه ، كما يعنى صانع السجاد بالوشى الذى تعبر عنه خيوطه . وعلى هذا النمط تحولت صناعة الكتابة عند ابن العميد إلى تطريز خالص ، وهو يحتال على هذا التطريز

---

(١) الفيئة : الرجوع .

(٢) الاستيناء : التأنى .

بحيل كثيرة ، ولم لا ؟ ألم يتعلم فن الحيل؟ وإذاً فلماذا لا يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل ، وقد استطاع أن يصل عن هذه الحيل إلى بدْع طريف فى سجعه ، وذلك أنه كان يعمد إلى تقصير عباراته ، وهذا التقصير أو هذا القصر من أهم الفروق بين سجعه وسجع أصحاب الدواوين من قبله ، وقد نظرَ فرأى نفسه يضطر فى أحوال كثيرة إلى عبارات طويلة ، فكيف يوفق بين رغبته فى القصر وبين طول هذه العبارات ؟ لقد فكر طويلا فى هذه الصعوبة ، وسرعان ما هداه تفكيره إلى حيلة طريفة : هى أن يوازن بين كل لفظة وقرينتها فى العبارتين المتجاورتين ، وبذلك يرفع ما قد يحسه القارئ أو السامع من بعد الزمن فى موسيقى الجملتين ، وكأنى بابن العميد كان يعرف معرفة دقيقة أنه كلما طال الزمن الذى تنتظره الأذن فى سماع العبارات المسجوعة نقص التلاؤم الموسيقى . وهو لذلك يعمد كما ترى فى أول القطعة إلى السجع القصير الذى لا يأخذ من قارئه زمناً طويلا ، ولكن استمر فى القراءة تَرَهُ يضطر إلى الطول فى عباراته ، فماذا يصنع إزاء هذا الطول الذى يثقل على أذن سامعه ؟ لقد وصل إلى حيلة طريفة من الموازنة بين العبارتين المتجاورتين موازنة تجعل ألفاظهما وكأنها جميعاً قد نُغِّمت وسجِّعت على نحو ما نرى فى مثل قوله : «فإنك تُدْلى بسابق حرمة ، وتمتّ بسالف خدمة» ، وقوله : « وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك » . وما من ريب فى أنها حيلة لطيفة تلك التى احتال بها ابن العميد على مثل هذه العبارات فإذا هى تصبح وكأنها قصيرة لما تكامل فيها من حلاوة الموسيقى . وما تلك الحلاوة إلا ما يتخذه من المعادلة بين ألفاظ عباراته معادلات تجعل فيها هذا الائتلاف الموسيقى الطريف ، فكل كلمة تتعادل مع قرينة لها فى الكلمة الأخرى وكأنما تطلبها لتعزف معها هذا العزف البديع الذى تمتاز به موسيقى ابن العميد . ولعل فى هذا ما يشهد بأن ابن العميد كان يصنّع فى سجعه إلى أقصى حدود التصنيع التى يستطيعها وهو يحتال على ذلك بوشى البديع من جهة كما يحتال عليه بقصر الزمن فى سجعه من جهة أخرى ، فإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره بهذه الحيلة

من إحداث المعادلات والموازنات بين ألفاظ العبارتين حتى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى إلا وتحس براحة صوتية إزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية لأنها تماثل قرينة لها فى العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل.

وهذه هى صورة التصنيع فى الكتابة الديوانية عند ابن العميد ؛ فهو يعمد إلى زخرف البديع يوشّى به لفظه ، وهو دائماً — كما تصوره يتيمة الثعالبى — يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع ، وإنه ليحتال فى تحسين سجعه والإكثار من وشى بديعه حيلا مختلفة ، أما سجعه فكان يحتال عليه بالقصر فإن كان طويلا قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه حتى لكأنها تتشابك تشابك توقيعات الراقصين ، وأما بديعه فإنه كان يكثر منه ، وكان ما يزال يحتال على اللفظة حتى يحمّلها وشى الطباق من جهة ووشى التصوير أو الجناس من جهة أخرى . ومن أجل هذه الحيل كلها وما اقترن بها من مهارة وتفنن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع فى عصره غير مدافَع ولا منازَع ، ومع ذلك فسنقف عند الصاحب بن عباد تلميذه وخرّيجه لنرى هل استطاع أن يضيف من جديد إلى تصنيع أستاذه .

٦

الصاحب بن عباد وتصنيعه

هو كافى الكفاة إسماعيل بن عباد ، ولد فى إصطخر وقيل فى الطالقان بين قزوين وأبهر سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦ هـ وكان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة البويهيين وكان شيعيًّا غير غال ، وتوفى فى السنة التى توفى فيها ابنه .

وابن عباد هو الوزير الثانى الذى لمع اسمه فى بلاط البويهيين ، وقد درس على أبيه وأخذ عنه مذهبه الدينى والسياسى ، وأخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوى المعروف وأكمل دراسته ببغداد . ولما عاد إلى وطنه فى الرّىّ خدم فى دواوين أبى الفضل ابن العميد . ويظهر أنه أعجب به فقرّبه منه ، وما

لبث أن اختاره ليكون مربياً لمؤيد الدولة أخى عضد الدولة ، وكانت إقامة مؤيد الدولة بأصبهان فأقام معه فيها ولقب بالصاحب لصحبته له صغيراً . ولما تقلد شئون الدولة بعد أخيه عضد الدولة اتخذ الصاحب وزيراً له واستمر على وزارته حتى توفى ، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة ، وظل فى الوزارة حتى وافته منيته عام ٣٨٥ هـ . وقد قضى فى الوزارة نحو ثمانية عشر عاماً [١] ، ويقال إن أباه ألف كتاباً نصر فيه الاعتزال وكان محدثاً روى عنه ابنه وغيره [٢] ، ويظهر أن ابن عباد ورث هذه الجوانب فى أبيه ، فقد نشأ على الاعتزال [٣] كما نشأ على التشيع ومحبة العلم ، ويقال : إنه خرج يوماً — وهو وزير — متطلساً متحنكاً بزى أهل العلم لرواية الحديث وإملائه على الناس . وكما كان يولع بالحديث كان يولع باللغة ، وقد ألف فيها كتاب المحيط فى سبع مجلدات ، وله كتاب الإمامة يذكر فيه فضائل على بن أبى طالب ، وأيضاً رسالة صغيرة فى الكشف عن مساوئ المتنبى [٤] . وما من ريب فى أنه لو لم يشغل بالوزارة والكتابة لكان عالماً ممتازاً من علماء عصره ، ولعله من أجل ذلك كان يشجع على التأليف . كما كان يشجع على الشعر ، وكان يعجب بالكتابة الرفيعة ، ومدحه مكاتبة الشريف الرضى وأبو إسحق الصابى « واحتفت به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى وملك رق المعانى » [٥] . وحدث ابن بابك قال : « سمعت الصاحب يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد » [٦] . وكان ينافسه فى هذه الحركة — على ما يظهر — سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، الذى فتح الثعالبى فى يتيمته فصلا لمُدّاحه من الشعراء ، وقد أنشأ داراً للعلم

---

(١) معجم الأدباء (طبع مصر) ٦/١٧١ .
(٢) نفس المصدر ٦/١٧٢ .
(٣) اليتيمة ٣/١٧٩ ومعجم الأدباء ٦/١٧٤ .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٧٥ .
(٥) اليتيمة ٣/١٦٩ .
(٦) معجم الأدباء ٦/٢٦٣ .

فى الكرخ ببغداد، كل ذلك منافسة لإسماعيل بن عباد[١]. ويقول ابن خلكان عن تلقبه بلقب الصاحب، وهو « أول من لُقِّبَ بذلك اللقب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، وذكر الصابى فى كتاب التاجى أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة ابن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به »[٢].

وقد كان الصاحب معجباً بفنه تياهاً به واستغلّ فيه هذا الجانب خصمه أبو حيان التوحيدى فثلبه أقبح ثلب[٣] ، ومن ثلْبه له ما يقصُّه من أن رجلا من أهل الشام « ورد إليه ، فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقْرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان ، قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن الرجل ، ورآه الصاحب ، فقال : تغمز حماراً لا يحسّ»[٤]. ويقول التوحيدى أيضاً : إنه كان فى مجلسه شخص يسمى أبا طالب العلوى « وكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه ، وخبراً ينمقه ؛ ويرويه، يبلق عينيه، وينشر منخَريه، ويُرِى أنه غُشى عليه حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فإذا أفاق قيل ما أصابك ، ما عراك ، ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويونقنى حتى فارقنى لُبّى وزايلنى عقلى وتراخت مفاصلى وتخاذلت عُرَى قلبى وذَهل ذهنى وحِيل بينى وبين رشدى، فيهلل وجه ابن عباد عند ذلك وينتفش »[٥] . ويظهر أنه كان يسجع فى حديثه وكلامه ، ويقص الرواة طُرفاً له فى ذلك كثيرة[٦] . يقول أبو حيان: « وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول ، عند الجد والهزل ، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد ، قلت لابن المسيّبىّ : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عروة

---

(١) Nicholson, lit. Hist. of Arabs, p. 267.
(٢) وفيات الأعيان ١/٧٥ .
(٣) معجم الأدباء ٦/١٧٦ .
(٤) معجم الأدباء ٦/٢٥٨ .
(٥) معجم الأدباء ٦/٢٣٧ .
(٦) نفس المصدر ٦/٢١٣ .

الملك ويضطرب بها حبل الدولة ، ويُحتاج من أجلها إلى غُرْم ثقيل وكلفة صعبة وتجشم أمورٍ وركوب أهوال لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتى بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها »[١] . وكانوا يزعمون أن سجعة اضطرته إلى عزل قاضى مدينة قُم : فإنه قال يوماً : أيها القاضى بقم ثم حاول أن يكمل السجع فأعنَتَه ذلك فقال : قد عزلناك ، فقم . ويبدو أن إغرامه بالسجع على هذا النحو كان قديماً فيه ، فقد روى الرواة عن ابن العميد أنه قال : « خرج ابن عباد من عندنا من الريّ متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين . . فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : كتابى هذا من النَّوبهار ، يوم السبت فى نصف النهار »[٢] .

ولعل أول ما يلاحظ فى سجع الصاحب أنه يمتاز بالخفة والعذوبة فهو فى لفظه أكثر صفاء وأكثر تنغيما من معاصريه من كتَّاب الدواوين ، واستمعْ إلى هذه الرسالة القصيرة التى كتب بها إلى أحد القضاة وقد وفد عليه فى الرَّيّ[٣] :

«تحدثت الركابُ بِسَيْرِ (أرْوَى) إلى بلدٍ حططتُ به خيامى
فكدت أطير من شوق إليها بقادمةٍ كقادمة الحمام

أفحقٌّ ما قيل من أمر القادم ؟ أم ظنٌّ كأمانىّ الحالم ؟ لا والله ! بل هو دَرْك العيان ، وإنه ونيل المنى سيان ، فرحباً أيها القاضى براحلتك ورحلتك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك ، وياسرعة ما فاح نسيم مَسْراك ، ووجدنا ريح يوسف من ريّاك ، فحُثَّ المطىّ تَزل غُلَّتى برؤياك ، وتزح علّتى بلقياك ، ونُصَّ على يوم الوصول نجعله عيداً مشرّفا ، ونتخذه موسماً ومعرّفاً ، ورُدَّ الغلام ، أسرع من رجع الكلام . فقد أمرته أن يطير على جناح نَسر ، وأن يترك الصَّبا فى عِقال وأسْر :

سقى الله دارات مررتَ بأرضها فأدْنتك نحوى يا زيادُ بن عامر
أصائلُ قربٍ أرتجى أن أنالها بلُقياك قد زحزحن حرَّ الهواجر»

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٠٧ .

(٢) معجم الأدباء ٦/٢٢٠ .

(٣) اليتيمة ٣/٢٢٨ .

أرأيت إلى هذه الرسالة القصيرة وما فيها من عذوبة اللفظ وجمال النغم ؟ إن الصاحب حقًّا أستاذ ماهر من أساتذة فن التصنيع فى القرن الرابع ، وإنه ليتخذ فى هذا الفن جميع المفاتيح الموسيقية التى عثر عليها ابن العميد ، فهو من جهة يعنى بقصر سجعاته ، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر ، ثم هو من جهة أخرى يعنى بألوان البديع يحلّى بها جيد أساليبه ، وقد كان يعنى عناية خاصة بلونى التصوير والجناس ، ولعل ميله إلى الجناس هو الذى جعله يكثر فى رُقَع رسائله من الجناس الناقص . أما ميله إلى التصوير ، فقد جعله يبرع فى أوصاف الطبيعة حتى لتتحول جوانب من رسائله إلى ما يشبه الشعر المنظوم كقوله فى رسالة له : « كتابى هذا وقد أرخى الليل سُدوله ، وسحب الظلام ذيوله »[1]. وقوله فى أخرى يصف مجلس أنس : « قد قابلتنى شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقى ذماؤها ، وسامتْنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبْرادها ، وحضرتنى نارنجات ككرات من سفن ذُهِّبت ، أو ثُدىّ أبكار خُلِّقت »[2] . وهذا جانب واضح فى تصنيعه ، وقد استطاع به أن يطرف قراءه وسامعيه بضرب من الشعر المنثور الذى تمتلئ سجعاته بالرشاقة والخفة . وقد كان بهذا التصنيع وما يندمج فيه من وشى السجع والترصيع يأخذ مكانته فى عصره ، وهى مكانة جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الرىّ والجبل من البويهيين عليه ، ويتمنون أن لو صار إليهم . روى الثعالبى أن نوح ابن منصور صاحب خراسان السامانى أرسل إليه رقعة يريده فيها على الانحياز إلى حضرته ، ليُلقى إليه مقاليد مملكته ، ويعتمد لوزارته ، فاعتذر له بأنه لا يستطيع الانتقال إليه لكثرة حاشيته وأثقاله ، وما لديه من كتب تحتاج فى نقلها إلى أربعمائة بعير[3] . وقد قالوا إنه لما توفى لقى من الإعظام والإكبار

---

(١) اليتيمة ٣/٢٢٧ .

(٢) اليتيمة ٣/٢٢٣ . وخلقت : من الخلوق وهو ضرب من الطيب .

(٣) اليتيمة ٣/١٧٣ وانظر معجم الأدباء ٦/٢٥٩ .

ما لم يلقه أحد من وزراء عصره ، فقد سار فخر الدولة فى جنازته ، وقام الناس بأجمعهم فقبلوا الأرض بين يديه وخرّقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، وبلغوا فى البكاء والنحيب عليه جهدهم[١] ، وقد رثاه الشعراء — على نحو ما يروى العتبى — رثاء حارًّا[٢] . والحق أن الصاحب بن عباد كان أحد أساتذة البلاغة فى عصره ، وبلغ بمذهب التصنيع مبلغاً عظيما من الزخرف والتنميق وما يتصل بذلك من الزركشة والتطريز .

٧

تصنيع أبى إسحاق الصابى

هو إبراهيم بن هلال الحرانى الصابى الذى اشتهر بالبيان والبلاغة لهذا العصر . ولد سنة ٣١٣ هـ ولاه الوزير المهلبى ديوان الرسائل ببغداد عام ٣٤٩ هـ[٣] ، فخدم بذلك الخلفاء كما خدم الأمراء من بنى بويه الذين استولوا على بغداد منذ عام ٣٣٤ هـ ، ويُحكى أن مولاه عز الدولة البويهى عرض عليه الوزارة إن أسلم فامتنع[٤] . ويقول الرواة : إنه كان حسن العشرة للمسلمين حتى قالوا إنه كان يصوم شهر رمضان مساعدة وموافقة لهم ، وقالوا إنه كان يحفظ القرآن حفظاً يدور على لسانه ، وبرهان ذلك واضح فى رسائله[٥] . وقد استمر على ديوان الرسائل حتى عام ٣٦٧ هـ إذ « ورد عضد الدولة إلى بغداد وكان نقم عليه أشياء من مكتوباته عن الخليفة وعز الدولة فحبسه ، فسُئل فيه ، وعُرِّف بفضله ، وقيل له : مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه ، فإنه كان فى خدمة قوم لا يمكنه إلا المبالغة فى نصحهم ، ولو أمره مولانا بمثل ذلك — إذا استخدمه — فى أبيه ما أمكنه المخالفة ، فقال عضد

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٥٩ .
(٢) انظر اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ١/٢٠٢ .
(٣) معجم الأدباء ٢/٦٢ .
(٤) اليتيمة ٢/٢١٩ ومعجم الأدباء ٢/٢١ .
(٥) اليتيمة ٢/٢١٩ .

الدولة : قد سوّغته نفسه ، فإن عمل كتاباً فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته ، فشرع فى محبسه فى كتاب « التاجى فى أخبار بنى بويه» . وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو فى تبييض وتسويد فى هذا الكتاب فسأله عما يعمله ، فقال : أباطيلُ أنمقها ، وأكاذيب ألفّقها . فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفِيَلة ، فأكبّ أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعان إليه فى أمره ، حتى أمر باستحيائه ، وأَخْذ أمواله واستصفائه ، وتخليد السجن بدمائه ، فبقى فى السجن بضع سنين إلى أن تخلص منه »[١] عام ٣٧١ هـ[٢] ، وتوفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ فعاد إلى العمل فى الدواوين حتى توفى عام ٣٨٤ .

وقد اتصل الصابى فى مطلع حياته بالثقافة الفلسفية ، فهم يرون أنه بدأ أمره بدراسة الطب ثم انصرف عنه إلى الأدب والكتابة[٣] ، ويقول القفطى : إنه كان عالماً بالهندسة والهيئة والرياضيات[٤] ، وهو إلى ذلك كان مثقفاً ثقافة واسعة باللغة والشعر قديمه وحديثه . واستطاع أن يحقق لنفسه قدرة بيانية جعلته يرتفع على أقرانه من المسلمين إلى رياسة ديوان الرسائل ، ولعل مما يدل على قدرته فى هذا الجانب أننا نرى كبار الأدباء فى عصره يعظمونه ويجلّونه . يقول ياقوت : « كان بينه وبين الصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد مراسلات ومواصلات ومتاحفات ، وكذلك بينه وبين الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوى مودة ومكاتبات ، مع اختلاف الملل ، وتباين النِّحَل ، وإنما كان ينظمهم سلك الأدب مع تبدد الدين والنسب »[٥] . ويقول صاحب اليتيمة : إن شعراء العراق مدحوه فى جملة الرؤساء[٦] . وهم يروون عن الصاحب أنه كان يقول : « ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحق الصابى ، ويكتب عنى ، وأغيّر عليه »[٧] . وكل ذلك

---

(١) معجم الأدباء ٢/٢١ .
(٢) نفس المصدر ٢/٣٥ .
(٣) نفس المصدر ٢/٥٥ .
(٤) أخبار الحكماء ص ٥٤ .
(٥) معجم الأدباء ٢/٢٣ .
(٦) اليتيمة ٢/٢١٨ .
(٧) معجم الأدباء ٦/٣٠٦ .

لما كان من براعته ومهارته فى البيان والبلاغة ، وقد كان يعرف ذلك من نفسه وفنه ، فعبَّر عنه أجمل تعبير إذ يقول[١] :

وقد علم السلطان أنى أمينهُ ... وكاتبه الكافى السديدُ الموفَّقُ
فيمناىَ يمناهُ ولفظىَ لفظهُ ... وعينى له عينٌ بها الدهرَ يرمقُ
ولى فِقرٌ تَضْحَى الملوك فقيرةً ... إليها لدى أحداثها حين تطرُقُ

والحق أن الصابى كان علماً من أعلام البلاغة فى عصره ، ومن يرجع إلى رسائله يجده يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وصقل عباراته وتنقيح سجعاته ، وكان ما يزال فى تسويد وتبييض وتنميق حتى تخرج الرسالة مرصعة بكل ما يمكن من حلى ووشى . ولم يكن يأتى بحلى ووشى جديدين ، بل كان يخضع فى ذلك لما اصطلح عليه أصحاب مذهب التصنيع من السجع والتصوير والتجنيس وألوان البديع وإن كان لم يغرق فى استخدام هذه الألوان إغراق الصاحب ، ولا إغراق ابن العميد ، إذ كان همه الأول التسجيع والعناية به حتى يحصل من ذلك على طرف بديعة ، وانظرْ إليه يقول من رسالة كتبها عن معز الدولة بعد ظفره ببعض أعدائه[٢] .

« وكان الغامطَ لإنعامنا ، الجاحد لإحساننا ، المتردِّى من ذروة طاعتنا ، الهاوى فى هوّة معصيتنا ، الخالع ربْقَةَ ذمتنا ، النازع جُنَّةَ[٣] مشايعتنا ... ونحن نحمل أمره على ظاهره ، ونظن غائبه مثل حاضره ، وباطنه مثل عالنه ، حتى جذبنا بضَبْعه[٤] من المسقط المنحطّ ؛ إلى المرفع المشتط ، وانتهينا فى الإناقة[٥] بقدره ؛ والإشارة بذكره ، والتفخيم لأمره ، والتقديم لقومه ، إلى الغاية التى لا تسمح بها نفسٌ باذل ، ولا تسمو إليها همة آمل ، فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبَعُدَ صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمّت

---

(١) رسائل الصابى (طبع بعبدا بلبنان) ١/٨ .
(٢) رسائل الصابى ١/٣٣ .
(٣) الجنة : ما استترت به ، والربقة : العروة .
(٤) جذب بضبعه : نعشه ونوه به .
(٥) الإناقة : الارتفاع .

عنده الأموال ، ووطئت عقبة الرجال[١] ، وتضرمت بحسده جوانح الأكفاء ، وتقطعت بمنافسته أنفاس النظراء ، نزتْ به بِطْنته [٢] ، وأدركته شِقْوته ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت فى الغىّ أشطانه[٣] ، فنصب أشراكه وحبائله ، وأعمل مكايده ومخاتله » .

وأول ما نلاحظ على هذه القطعة أن الصابى يعنى بتقصير سجعه ، فإن هو أطاله نغم العبارتين تنغيما يجعلك تظن أنهما قصيرتان ، فالألفاظ تتعادل وتتوازن على نحو ما مر بنا عند أستاذ المذهب ابن العميد ، وملاحظة ثانية هى أنه يعنى بالتصوير كما يعنى قليلا بالجناس . وهذه هى صورة كتابة الصابى ، فهو يشغف بحلية السجع ؛ وهو يوفر لها ضروباً مختلفة من النغم ، وإن هذا التوفير ليؤدى به فإذا هو يعنى بالمقابلة الدقيقة بين أول العبارتين حتى تتشابه السجعتان فى أطرافهما : فى أولهما وآخرهما ، وهو لا يعمم ذلك فى رسائله ولكنه يجنح إليه كثيراً على نحو ما نرى فى نفس هذه القطعة ، وكل ذلك ليستتم ما يريد من صوت وموسيقى ، واستمعْ إليه يكتب إلى عضد الدولة يهنئه بسنة جديدة على هذه الشاكلة[٤] :

« أسأل الله تعالى مبتهلا لديه ، مادًّا يدىّ إليه ، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهر يستقبله ، وأمد يستأنفه ، موفياً على المتقدم له ، قاصراً عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ؛ ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً ، محميًّا موفوراً ، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصى أعداء وحسّاد ، ساميا طرفه فلا يغضه إلا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يُعملها إلا لاستضافة عز ومُلك ، فائزة قِداحه فلا يُجيلها إلا لحيازة مال وملك ، حتى ينال أقصى ما تتوجّه إليه أمنيته جامحاً ، وتسمو إليه همته طامحاً » .

---

(١) وطئت عقبه الرجال : كثرت أتباعه .
(٢) البطنة : الامتلاء من الطعام .
(٣) أشطانه : حباله .
(٤) اليتيمة ٢/٢٢٢ .

وأنت تراه يعنى عناية شديدة بهذا الجانب الموسيقى من تصنيعه ، فما يزال يقابل ويعادل ويدقق فى مقابلاته ومعادلاته حتى تخرج عباراته متساوية فى أصواتها تمام المساواة ، وكأنه لا يؤلف نثراً ، وإنما يؤلف شعراً . والواقع أن ابن العميد وتلاميذه من أمثال الصابى وابن عباد رفعوا الحواجز التى كانت تفصل بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر ، أو قل على الأقل إنهم رفعوا كثيراً من هذه الحواجز ، فقد أحالوا نثرهم إلى موسيقى خالصة ، فكله ألحان وأنغام ، وما الفارق الذى يفرق بين مثل هذا السجع والشعر ؟ إنه يعتمد مثله على الموسيقى كما يعتمد مثله على البديع ، وما يزال الكاتب به حتى يخرجه زخرفاً خالصاً ، فكله حلى وتنميق وتصنيع ، وهو من أجل ذلك لا يشبه النثر الذى كنا نألفه قبل ذلك عند كتاب الدواوين فى القرنين الثانى والثالث ، وإنه يشبه الشعر ، ففيه جميع شياته من موسيقى وبديع ، ولكنه مع ذلك نثر لأنه لا يجرى فى موسيقاه على أوزان الخليل ، ومن ثم كنا لا نستطيع أن نسميه شعراً ، ونحن أيضاً لا نستطيع أن نسميه نثراً خالصاً ، هو فى الواقع شىء بين الشعر والنثر ، ولذلك كان النقاد يسمونه شعراً منثوراً ، وتفنن ابن العميد وتلاميذه بصور مختلفة فى إنتاج هذا الضرب من الشعر المنثور ، وذهبوا يحققون له كل ما يمكن من زخرف وتصنيع . ومهما يكن فإن الصابى كان علماً من أعلام البيان فى عصره ، وقد أقرّ له معاصروه ومن جاءوا بعدهم بذلك ، يقول الثعالبى : « إنه أوحدُ العراق فى البلاغة ومن به تُثْنَى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة »[1] . ويقول ياقوت : إنه « أوحد الدنيا فى إنشاء الرسائل »[2] . ويقول ابن الأثير : « كيف أضع من الصابى وعَلَم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن والواحد فيه »[3] ولما توفى رثاه الشريف الرضى بقصيدة طنانة مطلعها[4] :

أرأيتَ من حَملوا على الأعوادِ ... أرأيتَ كيف خَبَا ضياءُ النادى

---

(١) اليتيمة ٢/٢١٨ .
(٢) معجم الأدباء ٢/٢٠ .
(٣) المثل السائر لابن الأثير ص ١٤٨ .
(٤) اليتيمة ٢/٢٨١ .

وما من ريب فى أن هذا كله يدل على ما كان للصابى من منزلة رفيعة بين معاصريه ومن جاءوا على إثرهم إذ كان أستاذاً ماهراً فى فن التصنيع لعصره ، وكان وما يزال يتفنن فى رسائله حتى يخرجها فى صورة بديعة من الزخرف والتنميق .

٨

التصنيع عام بين كتاب الدواوين

إذا تركنا الصابى والصاحب إلى من عاصروهما من كتّاب الدواوين وجدناهم جميعاً يذهبون هذا المذهب من التصنيع للسجع والبديع ، ومن ينظر فى كتاب اليتيمة للثعالبي وما عرَض فيه من كتّاب الدواوين يعرف أنهم كانوا جميعاً يلتزمون هذا المذهب فى صناعة نثرهم ، إذ كان بِدْعاً عامًّا بينهم ، وكان كل منهم يحاول أن يكون له شأن أى شأن فى هذا البدع الجديد ، ويتضح من اليتيمة أن أشهر الكتّاب الذين عاشوا فى هذا العصر وكانوا امتداداً لهذا المذهب هم : عبد العزيز بن يوسف ، وأبو العباس الضبى ، وعلى بن محمد الإسكافى ، وأبو الفتح البُسْتى ، إذ كانوا جميعاً يعنون برسائلهم عناية شديدة .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة ، وتقلد الوزارة للبويهيين عدة مرات ، وفيه يقول صاحب اليتيمة : « أحد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، والآثار والأخبار ، وأعيان الممدوحين المقدَّمين فى الآداب والكتابة والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة »[1] . ساق الثعالبي جملة من نثره وهى جميعها موشحة بألوان التصنيع وأصباغه كقوله يصف رسالة كتبها إليه أبو إسحاق الصابى : « علمتُ كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتتلاقى طرق الخطابة ، وتتراءى أشخاص البيان ، وتمايل أعطاف الحسن والإحسان ، وقرأتُ لفظاً جليًّا ، حوى معنى خفيًّا ، وفصولا

---

(١) اليتيمة ٢/٢٨٧ .

متباينة ، كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثانى وتعلق العَجُز بالهادى فيها أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قُرْبى موصوله ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف أبكارها وعُونها »(١) .

وأما أبو العباس الضَّبِّي فهو خليفة الصاحب بن عباد وتلميذه ، وفيه يقول الثعالبي : « هو جذوة من نار الصاحب أبي القاسم ، ونهر من بحره ، وخليفته النائب مَنابه فى حياته ، القائم مَقامه بعد وفاته ، وكان الصاحب استصحبه منذ الصبا ، واجتمع فيه الرأى والهوى ، فاصطنعه لنفسه ، وأدبه بآدابه ، وقدَّمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندمائه ، وخرج منه صدراً يملأ الصدور كمالاً ، ويجرى فى طريقه ترسماً وترسّلا ، وفى ذُرَى المعالى تَوَقُّلاً(٢) . . . وقد كانت بلاغة العصر بعد الصاحب والصابى بقيت متماسكة بأبى العباس ، فأشرفت على التهافت بموته ، وكادت تشيب بعده لِمَمُ الأقلام ، وتجفّ غُدُرُ محاسن الكلام »(٣) . وقد روى الثعالبي له غُرراً من رسائله كقوله فى صدر أحد كتبه : « قد أتانى كتاب شيخ الدولتين فكان فى الحسن روضة حزْن ، بل جنة عَدْن فى شرح النفس ، وبسط الأنس ، بل بَرْدَ الأكباد والقلوب ، وقميصَ يوسف فى أجفان يعقوب »(٤) .

وأما على بن محمد الإسكافى فكان كاتب الدولة السامانية ووزيرها ، وفيه يقول الثعالبي : « هو لسان خراسان وغُرَّتها ، وعينها وواحدها ، وأوحدها فى الكتابة والبلاغة ، ومن لم تُخرج مثله فى البراعة والصناعة ، وكان تأدَّب بنيسابور عند مؤدب بها ، يعرف بالحسن بن المهرجان ، من أعرف المؤدبين بأسرار التأديب والتدريس ، وأعلمهم وأدراهم بطرق التدريج فى التخريج ، ثم حرَّر مُديدة فى بعض الدواوين ، فخرج منقطع القرين »(٥) . ثم يقول

---

(١) اليتيمة ٢/٢٩٥ . وعونها : جمع عوان وهى الثيب .

(٢) التوقل : الصعود فى الجبل .

(٣) اليتيمة ٣/٢٦١ .

(٤) اليتيمة ٣/٢٦٢ .

(٥) اليتيمة ٤/٩٠ .

الثعالبي : « إنه كان أكتب الناس فى السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعى ، قصير الباع » [١] . وقد لاحظ ابن الأثير نفس هذه الملاحظة على الصابى[٢] . ويروى الثعالبي طائفة من نثر الإسكافى ، وهى كلها تنهج نهج التصنيع ، وما يُطْوَى فيه من سجع وبديع ، ويختم الحديث عنه بقوله : « إنه لما انتقل إلى جوار ربه غدتْ لفراقه الكتابة شعثاء ، والبلاغة غَبْراء ، وأكبرَ فضلاء الحضرة رزيته ، وأكثروا مرثيته ، وفيه يقول بعض الشعراء :

ألم تر ديوان الرسائل عطلتْ ... لفقـــدانه أقلامهُ ودفاترُهْ
كثغرٍ مضى حاميه ليس يسره ... سواه وكالكسر الذى عَزَّ جابره
ليَبْكِ عليه خطهُ وبيانهُ ... فذامات واشيه وذامات ساحره »[٣]

وأما أبو الفتح البُسْتى فكان — فى أول أمره — كاتباً لباى توز أمير مدينة بُسْت ، وهى من مدن أفغانستان ، فلما استولى عليها الأمير سبكتكين ألحقه بخدمته « وصار من بعد ينظم بأقلامه منثور الآثار عن حسامه ، وينسج بعباراته وشائع فتوحه ومقاماته ، وهلم جرًّا ، إلى زمان السلطان يمين الدولة وأمين الملة (محمود بن سبكتكين) فقد كتب له عدة فتوح إلى أن زحزحه القضاء عن خدمته ، ونبذه إلى ديار الترك من غير قصده وإرادته »[٤] . واشتهر البستى بكثرة الجناس فى كلامه ، يقول العتبي : « هو صاحب التجنيس »[٥] ، ويقول الثعالبي : « هو صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأسيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتى فيه بكل طريقه لطيفة »[٦] . ولم يَرْوِ الثعالبي شيئاً من رسائله ، وإنما اكتفى ببعض ما فى كتبه من أمثال وحكمة كقوله : « عادات السادات ، سادات العادات . من سعادة جَدِّك ،

---

(١) اليتيمة ٤/٩٢ .
(٢) المثل السائر ص ١٤٨ .
(٣) اليتيمة ٤/٩٤ .
(٤) انظر تاريخ اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ١/٧١ .
(٥) نفس المصدر ١/٦٧ .
(٦) اليتيمة ٤/٢٨٤ .

وقوفك عند حدّك . الدعة رائد الضعة . إذا بقى ما فاتك ، فلا تأس على ما فاتك . الخلاف غلاف الشر ، عسى تحظى فى غدك برغدك » . وهى كلها أمثال مسجعة نمقت بوشى التجنيس ، وكأنما كان يعمد البستى إلى هذا الوشى عمداً كى يتفوق على معاصريه فى استخراج كل ما يمكن من بدائعه وطرائفه . وأكبر الظن أننا لا نغلو بعد ذلك إذا قلنا إن الكتابة الديوانية قد تحولت على أيدى هؤلاء الكتاب وأضرابهم إلى تحف فنية خالصة .